شمس الدين شهرزورى در رسائل الشجرة الالهية فى علوم الحقايق الربانية
ص 558

[خوف الموت و علاجه]

خوف الموت هو أشدّ من جميع المخاوف؛ و يكون إمّا لمن لا يدري ما ماهية الموت، أو معاد النفس إلى أين، أو يتوهم أنّ بالموت ينحل التركيب و يعدم، أو العالم لا يبقى موجودا، و لا يبقى عنده خبر ، أو يظن أنّ الموت ألم عظيم، أو يخاف من العقاب بعد الموت، أو يكون متحيّرا و لا يدري كيف يكون حاله بعد الموت، أو يتأسّف على الأموال و الأولاد الباقية بعده.

و أكثر هذه ظنون باطلة و لا حقيقة لها، و هي جهل محض.

و حقيقة الموت ترك استعمال الآلة البدنية بالكلية، كترك النجار استعمال الفأس و المنشار، و قد بيّن في الحكمة.

و إن كان الخوف لعدم المعرفة بمعاد النفس، فهذا الخوف من الجهل، لا من الموت؛ و الحذر من هذا «6» الجهل بتعلّم الحكمة، كما فعلت الحكماء: في طلب الحكمة اجتهدوا و بحثوا و تركوا الشهوات الجسمانية و اللذات البدنية حتى تخلّصوا من هذا الخوف و التعب و الجهل.

فالراحة الحقيقية هو «7» العلم الحقيقي؛ كما أنّ التعب الحقيقي الجهل. و راحة أهل العلم و الحكمة إنّما تحصل من الحكمة؛ إذ الدنيا و ما فيها حقير عندهم، لما فيها من كثرة الهموم و الغموم و سرعة الانتقال و الزوال و أنواع العناء و المصائب.

و ثمرة العلم و الحكمة البقاء الأبدي و السرور السرمدي و الراحة الأزلية؛ فلا جرم قنعوا من الدنيا بقدر الضرورة و رفضوا فضول العيش بالكلية؛ لأنّ

رسائل الشجرة الالهية فى علوم الحقايق الربانية، النص، ص:
559

فضول العيش و الحرص على الدنيا قد ينتهي إلى غاية ليس وراءها غاية؛ و هذا الحرص هو الموت الحقيقي، لا الذي كان يحذر منه. و لأجل هذا قالت الحكماء: إنّ الموت نوعان: إرادي و طبيعي؛ و كذا الحياة «1»؛ و يريدون بالموت الطبيعي مفارقة النفس البدن؛ و بالحياة الإرادية الحياة الفانية الدنيوية المشروطة بالأكل و الشرب؛ و بالحياة الطبيعية البقاء الدائم في الغبطة و السرور. و أفلاطن يقول: «مت بالإرادة تحيى بالطبيعة»، و المتصوفة يقولون: «موتوا قبل أن تموتوا»، لأنّ الذي يخاف من الموت الطبيعي هو خائف من لازم ذاته و تمام ماهيته؛ لأنّ الإنسان هو الحيّ الناطق المائت؛ فالمائت «2» جزء من تمام ماهيته؛ و أيّ جهل يكون أعظم ممّن يتوهّم أنّ فناءه بحياته، و نقصانه بتمامه؛ و العاقل يستوحش من النقصان و يستأنس بالكمال، و الطالب يطلب ما هو أتمّ و أشرف، و ما يعين على الخروج من أسر «3» الطبيعة. و متى خلص الجوهر الشريف النوراني من الجوهر الكثيف الظلماني، حصل له البقاء و الصفاء و

وصل إلى ملكوت السماوات و مخالطة الأرواح. و من هذا يعلم أنّ الشقي من تكون نفسه قبل المفارقة البدنية مائلة إلى اللذّات الجسمانية، مشتاقة إلى ذلك، خائفة من المفارقة؛ فمثل هذا الشخص بعيد عن وطنه، متوجه إلى موضع يكون فيه أكثر تألّما من الموضع الذي كان فيه.

أمّا الخوف من الموت بظن أنّه يتألّم منه، [علاجه] «4» أنّ ذلك ظنّ كاذب؛ لأنّ الحيّ هو القابل لأثر «5» النفس، لا الميّت الذي ليس فيه أثر النفس؛ و الألم إنّما «6» يحصل للجسم بتوسط النفس؛ فعلم أنّ الموت حالة للبدن مع وجود الإحساس «7».

رسائل الشجرة الالهية فى علوم الحقايق الربانية، النص، ص: 560

و أمّا الخوف من العقاب، فالخوف ليس من الموت، بل من العقاب يفزع «1» بعد الموت، و العقاب على شيء باق؛ فقد اعترف ببقاء شيء منه بعد المفارقة، من الذنوب و السيئات يستحق العقاب عليه؛ فخوفه من الذنوب لا من الموت؛ فينبغي أن لا يقدم على الذنوب. و الإقدام على الذنوب إنّما يكون من ميل رديّ في النفس؛ فالخوف هنا لا أثر له؛ و الذي له أثر غافل عنه و به جاهل؛ و علاج الجهل العلم؛ و هذا هو علاج الذي لا يدري كيف حاله بعد الموت؛ لأنّ كل من اعترف بحاله بعد الموت قد اعترف بالبقاء؛ و من قال «2»: «لا أعرف كيف تلك الحال؟» فقد اعترف بالجهل؛ و علاجه بالعلم و الحكمة.

و أمّا الخوف من [تخليف] الولد و المال و الملك، فينبغي أن يعلم أنّ هذا الشخص يتعجل الألم و المكروه على ما لا فائدة فيه «4»؛ فإنّ الإنسان من الكائنات، و كل كائن فاسد؛ فكل من لا يريد الفساد فهو لا يريد الكون؛ و كل من يريد كون نفسه فهو يريد فسادها، فهو يريد كلاهما و ذلك محال؛ و العاقل لا يلتفت إلى المحال؛ و لو كان آباؤنا لم يموتوا لم تصل نوبة الوجود إلينا؛ و لو أمكن بقاء المتقدّمين لأمكن «5» بقاؤنا. و لو بقى كل الناس لم تسعهم الأرض.

و نمثّل مثالا، و هو أنّ أمير المؤمنين عليّا- رضى اللّه عنه- لو لم يمت و لا أولاده و لا ما تناسل من أولاده إلى وقتنا هذا- و هو سنة ثمان و سبعين و ستمائة «6»- لكان قريبا من أن تضيق عليهم الأرض؛ لأنّه مع ما وقع فيهم من القتل و الفتك و الموت الذي لم يقع مثله في بيت، قد «7» امتلأت الدنيا منهم؛ فكيف لو

رسائل الشجرة الالهية فى علوم الحقايق الربانية، النص، ص: 561

لم يموتوا و لم يقتلوا «1». و كيف! لو «2» تضاعفت المدة أضعافا مضاعفة «3» لكان يتعذّر على الإنسان موضع قدم يقف فيه؛ فكيف بالمواضع التي يحتاج إليها في الذهاب و التردّد و الحرث «4» و غير ذلك.

و يعلم من هذا أنّ تمنّي الحياة و البقاء في الدنيا و كراهة الموت و الطمع في رجاء ذلك من الخيالات الفاسدة و الأوهام الجاهلية و المحالات العامية؛ و العقلاء و أرباب الذكاء و الفضل ينزّهون خواطرهم من أمثال هذه الأفكار.

و اعلم أنّ الحكمة الكاملة و المعدلة الشاملة تقتضي هذا الوضع و الهيئة على وجه لا يمكن المزيد عليه؛ و هو جود ليس وراءه غاية يمكن تصوّرها؛ فعلم أنّ الموت ليس بمذموم- كما يتصوّره العوام- بل المذموم «5» الخوف اللازم من الجهل.

و إذا نبّه أحد لضرورة الموت لا يتمنّى البقاء، لكن الأمل «7» بطول العمر و محبة المكث يحمله على ذلك؛ و ينبّهه بأنّ الذي يرغب بطول العمر فهو راغب بالضرورة بالشيخوخة المستلزمة لضعف الحرارة الغريزية و قلة الرطوبة الأصلية و ضعف الأعضاء الرئيسة و الحركة و فقدان النشاط و اختلال «8» آلات الهضم و سقوط آلات الطحن و نقصان القوى النباتية؛ و من لوازم هذه الأمراض و الأسقام و الآلام؛ و يبتلي «9» بموت الأحباب و فقد الأصحاب و تواتر المصائب و تطرّق النوائب و أنواع الشدائد، إلى غير ذلك من توابع طول العمر و الشيخوخة.

و إذا نظر بعين العقل وجد البدن مركّبا من العناصر المتداعية إلى الانحلال بعد أيام؛ و المقصود من إيجاده كمال النفس و الراحة في المفارقة و

رسائل الشجرة الالهية فى علوم الحقايق الربانية، النص، ص: 562

ترك المؤذيات من الزمان و المكان و البعد عن الأضداد و القرب من «1» الحضرة الربوبية و مجاورة الأبرار و النزول في دار القرار و الأمن من الموت و الفناء «2»؛ و بالفكر في أمثال هذه لا يخاف و لا يخرج إلى الموت و لا يميل إلى ظلمات البرازخ و طبقات الجحيم و سخط البارئ و منازل الفجار و مأوى الأشرار و مرجع الأشقياء.